الفصل الأول

❁ الحروب الإعلامية .

- حروب الإذاعات .
- حروب الصحافة .
- حروب الفضائيات .

❁ القنوات الحكومية .

الحروب الإعلامية

بدايات الحرب الإعلامية :

أتصور أن التقييم الموضوعى للفضائيات العربية يتطلب معرفة دقيقة ـ قدر الطاقة ـ بالمناخ الذى أُنشئت فيه هذه القنوات وأهداف الجهات التى أطلقتها. ويحتاج من يتصدى لمثل هذه الدراسة أن يعود إلى تاريخ يسبق نشأة هذه القنوات، وبالتحديد إلى حقبة منتصف خمسينيات القرن العشرين.

فهذا الكم الهائل من الفضائيات العربية ـ فى تصورى ـ هو فى الغالب خاصة فيما يتعلق بقنوات الأخبار مظهر من مظاهر «الحرب الإعلامية» العربية ـ العربية التى تفجّرت فى تلك الحقبة. وأيضًا «الحرب الإعلامية» بين بعض قوى الاستعمار والهيمنة الأجنبية. وإسرائيل من جانب، وبين بعض أنظمة الحكم العربية، خاصة ما سمى بالأنظمة الثورية وفى مقدمتها مصر من جانب آخر.

ومن هنا كان التعرّف على هذه الحرب الإعلامية والتى ظهرت بوضوح شديد، فى حقبتى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين أحد العناصر المهمة التى تقدم إضاءة تكشف أبعاد هذه الحرب الإعلامية بكل عناصرها «العربى ـ العربى» و «العربى ـ الأجنبى».

حرب الإذاعات :

فى النصف الثانى من خمسينيات القرن العشرين كانت مصر تشهد تحولًا جذريًا فى نظام الحكم بعد أن أنهت ثورة يوليو، التى قام بها الجيش، نظام الحكم الملكى فى مصر. وتسارعت القرارات ذات الملامح الاشتراكية والتحركات السياسية التى ترفع شعارات الوحدة العربية وضرورة رحيل الاستعمار عن كل التراب العربى.

وكان طبيعيًا أن تشعر أنظمة حكم عربية عديدة بالتوجّس من هذه التوجهات، وأن تستشعر خطرًا يمكن أن يهز عروشها المستقرة. وراودت نفس المشاعر قوى الاستعمار الإنجليزى والفرنسى الذى تحتل جيوشه العديد من البلاد العربية فى تلك الفترة. وشاركت الولايات المتحدة الأمريكية إنجلترا وفرنسا فى الشعور بالقلق. لأن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تُعِدّ خططها فى هذه الحقبة لترث نفوذ الاستعمارين الإنجليزى والفرنسى ولتصبح صاحبة النفوذ الأقوى إن لم يكن الوحيد، لتضمن السيطرة على منطقة جغرافية بالغة الأهمية وعلى ثروات طبيعية مختزنة بوفرة فى أراضى الدول العربية خاصة البترول، ولتكمل إحكام الطوق على الاتحاد السوفييتى الذى تصارعه إعلاميًا فيما عرف فى هذه الفترة بالحرب الباردة.

فى هذا المناخ اقتحم نظام الحكم الثورى الجديد فى مصر ساحة الحروب الإعلامية فى أكثر من اتجاه، فأطلقت مصر العديد من الإذاعات الموجهة باللغات الآسيوية والإفريقية. وكانت هذه الإذاعات الموجهة تحرّض شعوب هذه البلاد المحتلة على مقاومة قوات الاحتلال، بل وتناصر الثورات فى البلاد غير العربية سواء فى إفريقيا أو أمريكا اللاتينية بمنطق مطاردة قوى الإستعمار العالمى فى كل مكان[1].

أما على الصعيد العربى فقد أطلقت مصر إذاعة «صوت العرب» التى هاجمت بشراسة الاحتلال الإنجليزى والفرنسى فى عدد من الدول العربية، وشنت حربًا بالغة العنف على أنظمة الحكم العربية التى تتعاون مع هذا الاستعمار أو تحاول التسويق لمشاريع الأحلاف مع الولايات المتحدة الأمريكية، معتبرة هذه الأحلاف صورة جديدة للاستعمار مثل حلف بغداد على سبيل المثال.

ولم تكن الدول العربية تملك يومئذٍ إذاعات قادرة على التصدى لحملات «صوت العرب»، خاصة وأن النغمة الجريئة التى تميز بها «صوت العرب» لقيت تجاوبًا واسعًا من الجماهير العربية التوّاقة إلى التحرر من نير الاستعمار.

(١) بلغ عدد الإذاعات الموجهة إلى إفريقيا وآسيا وأوربا وأمريكا اللاتينية أكثر من ثلاثين إذاعة تبث باللغات الإنجليزية والفرنسة واللغات المحلية «أوردو وأندونيسى وفارسى» إلى شعوب آسيا، و«الهوسا والفولانى» إلى شعوب إفريقيا و«الإسبانية» إلى شعوب أمريكا اللاتينية و«العبرية» إلى إسرائيل.

وكان غاية جهد هذه الدول العربية والدول الاستعمارية استخدام تجهيزات هندسية للتشويش على الإذاعات العربية عامة وإذاعة «صوت العرب» خاصة. وحاولت بعض أنظمة الحكم العربية أن تشجع شخصيات مصرية معارضة لنظام الحكم الجديد فى مصر على إطلاق إذاعات موجهة إلى مصر تبث من بعض البلاد الأوروبية وتقدم هذه الإذاعات برامج تهاجم نظام الحكم فى مصر[1]. وواجهت مصر هذه الإذاعات بنفس الأسلوب، أى بالتشويش على موجات هذه الإذاعات.

وتصاعدت الحرب الإعلامية العربية ـ العربية باستخدام الإذاعات باعتبارها السلاح الأكثر قدرة على اختراق الحدود والوصول إلى الجماهير فى بلد الخصم، وكانت بعض البلاد العربية قد سارعت بتطوير إذاعاتها لهذا الغرض مثل إذاعة بغداد.

أما الإذاعات الناطقة باسم إنجلترا، وفى مقدمتها القسم العربى بالإذاعة البريطانية التى تبث برامجها من لندن، وإذاعة الشرق الأدنى للإذاعة العربية التى كانت تبث برامجها من القدس، ثم انتقلت بعد قيام دولة إسرائيل لتبث من قبرص، هاتان الإذاعتان حرصتا على استخدام الأساليب الهادئة والظهور بمظهر الإذاعة الملتزمة بالحياد وبالقواعد المهنية المحترمة. أما «صوت أمريكا» الذى يبث برامجه العربية من واشنطن فقد حرص هو الآخر أيضًا على أن يبدو محايدًا وغير متورط فى هذه الحرب الإعلامية التى تشتبك فيها الإذاعات المصرية والإذاعات التى تهاجم النظام المصرى. ودخلت فرنسا ساحة الصراع بإذاعة «مونت كارلو» الناطقة بالعربية. وكانت هذه الإذاعة أكثر جرأة فى نبرتها الناقدة لأنظمة حكم عربية . وبطبيعة الحال فقد كانت إذاعة إسرائيل الناطقة بالعربية هى الإذاعة الأكثر عنفًا فى مهاجمة أنظمة الحكم العربية والنظام المصرى بشكل خاص.

(١) بلغ عدد الإذاعات الموجهة إلى مصر فى الستينيات عشرات الإذاعات، كان أكثرها شهرة إذاعة مصر الحرة، ودخلت الساحة إذاعة إيرانية ناطقة بالعربية «إذاعة الأهواز» كرست هجومها على نظام الحكم فى مصر الذى بادلها هجومًا بهجوم، وشن هجمات شرسة على شاه إيران باعتباره أحد أهم القوى المساندة للاستعمار ولإسرائيل فى المنطقة. واحتضنت مصر الشخصيات الإيرانية المعارضة للشاه وأطلقت العنان لهذه القوى المعارضة لشن هجمات عنيفة على نظام حكم الشاه على أثير الإذاعات الموجهة إلى إيران باللغة الفارسية، كما اشتبكت مصر مع العراق إبان حكم عبدالكريم قاسم فى صراع إعلامى بالغ العنف.

وزادت الحرب الإعلامية اشتعالًا بعد العدوان الثلاثى على مصر، واضطرت إنجلترا إلى إغلاق أحد أهم إذاعاتها فى المنطقة وهى إذاعة الشرق الأدنى للإذاعة العربية، بعد أن شنت الإذاعات المصرية هجومًا عنيفًا على هذه الإذاعة، متهمة من يتعاون معها من العرب بالعمالة للاستعمار. وقدم معظم العاملين بهذه الإذاعة استقالاتهم، وتوقفت هذه الإذاعة نهائيًا عن البث بعد فشل العدوان الثلاثى على مصر[1].

الصحافة تدخل الميدان :

ومع تصاعد الحرب الإعلامية العربية ـ العربية قدم صحفيو لبنان خططًا مغرية لأطراف الصراع العربى العربى والعربى الأجنبى. فقد لوّح هؤلاء الصحفيون اللبنانيون بإمكانية استغلال «حرية الصحافة اللبنانية» لتكون لبنان ساحة الصراع الإعلامى. وصدرت فى لبنان عشرات الصحف. والكثير منها يعبّر بكل وضوح عن نظام حكم عربى أو أجنبى. وتدفقت الملايين من الأموال العربية والأجنبية لشراء الصحف التى تخوض الحرب الإعلامية نيابة عن هذه الأنظمة. ومع أن أنظمة الحكم العربية كانت تصادر الصحف اللبنانية التى تهاجمها، إلا أن هذه الأنظمة كانت تنقل عبر أثير إذاعاتها ما تنشره هذه الصحف اللبنانية سواء الهجوم على الخصوم أو تأييد سياسات هذه الأنظمة، باعتبار أن ما تنشره الصحف اللبنانية يمثل وجهة نظر مستقلة.

ورغم أن فترة ما بعد السادات فى مصر قد شهدت هدوءًا نسبيًا فى الحرب الإعلامية العربية ـ العربية فقد ظلت كل أنظمة الحكم العربية والأجنبية تحتفظ بعلاقاتها القوية بالصحف اللبنانية عبر التمويل السخى للعديد من هذه الصحف حتى بعد أن هاجرت إلى بلاد أوربية، تحسبًا لخلافات كثيرًا ما تنفجر فى أى لحظة بين الأنظمة العربية بعضها وبعض أو بين نظام عربى وإحدى الدول الأجنبية صاحبة المصالح الحيوية بالمنطقة العربية.

(١) هاجم صوت العرب بعنف إذاعة الشرق الأدنى، وكانت هذه الإذاعة تعتمد بدرجة كبيرة على فنانين وإعلاميين مصريين، ونتيجة لهذا الهجوم قرر هؤلاء الإعلاميون الانسحاب من العمل بهذه الإذاعة وقرر عدد كبير من الفنانين العرب مقاطعتها. وأمام هذه التحرك لم تجد إذاعة الشرق الأدنى للإذاعة العربية بُدًا من التوقف نهائيًا عن البث.

من هنا فإن الصحافة المطبوعة لم تكن أداة مباشرة فى الحروب الإعلامية العربية العربية والعربية الأجنبية، بل كانت مهمتها تقديم الموضوعات التى تستغلها «الإذاعات» فى هذه الحروب. وهذا أمر طبيعى لأن الصحافة المطبوعة يسهل مصادرتها ومنعها من التوزيع داخل أى بلد.

الحرب الإعلامية بالفضائيات:

وجاء التحول الهائل فى البث التلفزيونى بظهور البث الفضائى الذى يتطور كل يوم ليقدم سلاحًا جديدًا بالغ الخطورة. يستطيع أن يخترق كل الحدود ويصل بكل وضوح إلى أى مكان فى العالم، ليقدم بالصورة المبهرة أفضل أسلحة الحروب الإعلامية. وتلقفت هذه الأنظمة العربية والقوى الأجنبية الطامعة فى الهيمنة على المنطقة وفى مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية، تلقفت هذا السلاح الجديد لتبدأ مرحلة جديدة من الحرب الإعلامية. وسارعت الأنظمة العربية وبعض الدول الأجنبية خاصة الولايات المتحدة الأمريكية بحشد الأعداد الهائلة من الفضائيات الناطقة بالعربية، باعتبارها الأسلحة الأكثر تأثيرًا فى الصراع الإعلامى لكسب الجماهير لوجهة نظر الأنظمة المهيمنة على هذه الفضائيات، وهكذا قدم البث الفضائى سلاحًا خطيرًا يمكّن الدول المشتبكة فى حروب إعلامية من التغلب على العقبات الكثيرة التى كانت تحول دون وصول صوت هذه الدول إلى الجماهير المستهدفة. وحل سلاح الفضائيات الذى يخترق كل الحدود محل الأسلحة الإعلامية التى تعانى من مشكلات المصادرة «الصحف» أو التشويش «الإذاعة».

وبدأ عصر إعلامى جديد بالبث الفضائى، فكما أنه قدم لأنظمة الحكم سلاحًا قويًا فى حروبها الإعلامية فقد فتح الآفاق أمام الجماهير المحَاصَرة إعلاميا لتتطلع إلى مستقبل تنهار فيه أسوار الحصار الإعلامى. وأصبح فى استطاعة هذه الجماهير متابعة الأخبار والمواد السياسية التى حرمت من متابعتها لزمن طويل بفضل البث الفضائى القادر على اختراق كل الحدود.

البـدايـات

حلم البث العربى المشترك :

يبدو أن أنظمة الحكم العربية قد أدركت مبكرًا مدى خطورة هذا السلاح الجديد فى الحروب الإعلامية فتوافقت رغباتها للسيطرة المبكرة على هذا السلاح وإبقائه تحت وصايتها مجتمعة، حتى لا تنفرد دولة دون أخرى باستخدام هذا السلاح .

ولعل المبادرة التى قدمتها مصر عام ١٩٦٧ لإطلاق قمر صناعى عربى تملكة الدول العربية مجتمعة ويبث برامج مشتركة توافق عليها الدول الأعضاء جميعًا، لعل هذه المبادرة تكشف عن هذا الهاجس الذى راود أنظمة الحكم العربية فى هذا التاريخ المبكر.

وقد تقدم بالفكرة والدراسة الفنية المهندس صلاح عامر رئيس الهندسة الإذاعية المصرية، وتم تدارس الفكرة فى اللجنة الدائمة للإعلام بجامعة الدول العربية. وكانت البداية بالتحديد فى عام ١٩٦٧. وفى اجتماع لمجلس وزراء الإعلام العرب الذى عقد فى مدينة بنزرت بتونس صدرت توصية عن هذا الاجتماع تتحدث عن أهمية الاستفادة من التقدم التكنولوچى فى وسائل الإعلام والاتصال، خاصة بالأقمار الصناعية لمساندة الإعلام العربى على امتلاك القدرة لمخاطبة الرأى العام العربى الذى يكاد يفقد الثقة فى وسائل الإعلام العربية عامة والمصرية خاصة، نتيجة لفشل هذا الإعلام فى كسب ثقة الجماهير بعد هزيمة مصر أمام إسرائيل عام ١٩٦٧[١]. وكان التصور أن مخاطبة الجماهير العربية بصوت عربى موحّد عبر أثير فضائى يغطى المنطقة العربية كلها، يمكن أن يستعيد بعض هذه الثقة الجماهيرية المفقودة، وأن يمنع الحروب الإعلامية العربية العربية.

وظلت هذه التوصية تتسكع بين أروقة المؤسسات الإعلامية العربية كالاتحاد العربى للمواصلات السلكية واللاسكية، واتحاد الإذاعات العربية. ويصف الأستاذ حمدى قنديل حالة التخبط التى صاحبت فكرة إطلاق القمر الصناعى العربى

(١) كتاب «عربسات» للأستاذ حمدى قنديل الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٩.

بقوله : «الواقع أن القمر ضل طريقه لفترة فى أروقة الجامعة العربية بعد أن طرح وزراء الإعلام فكرته إثر انتهاء الحرب مع إسرائيل عام ١٩٦٧. ومضت أعوام من الصمت حتى تلقفه الإذاعيون. ثم مضت أعوام أخرى تنكّر فيها رجال المواصلات للقمر قبل أن يدّعوا بنوته. ولم تنشأ المؤسسة العربية للاتصالات الفضائية سوى بعد مرور نحو عشر سنوات من نشوء فكرة القمر، ولم يُطلق القمر نفسه سوى بعد مرور نحو عشر سنوات أخرى من قيام المؤسسة»[١].

ورغم أن الحلم العربى الذى راود وزراء الإعلام كان يتصور أن تقوم الدول العربية باستثمار هذا القمر العربى لبث مواد إعلامية مشتركة، فقد اكتشف هؤلاء الوزراء بعد إطلاق القمر استحالة استخدام هذا القمر فى بث مشترك على الهواء . ويعلق الأستاذ حمدى قنديل على هذه الهواجس بقوله : « واليوم - وبعد إطلاق القمر - يقول لنا المسئولون فى الإذاعة: إنهم يخشون من دس العبوات السياسية الناسفة فى البرامج المتبادلة. بل إن البعض يخشى بث مباريات كرة القدم على الهواء مباشرة لأن بعض المعلقين يخرجون عن التعليق الرياضى إلى المحظورات السياسية، ولأن اللافتات التى تُعَلّق فى الملاعب لا تتحدث عن المشروبات اللذيذة فحسب وإنما تحمل الشعارات الخطيرة المدمرة»[٢].

وأُطلق القمر الصناعى العربى أخيرًا فى الثامن من فبراير عام ١٩٨٥ لكنه لم يُستخدم لتحقيق حلم وزراء الإعلام العرب، بل ظل القمر سابحًا فى الفضاء تخدم بعض قنواته فى مجال الاتصالات الهاتفية بينما أكثر قنواته تطلق قنواتها غزيرة الإشعاع فارغة دون تحميلها بأى برامج إذاعية أو تلفزيونية.

ويكشف الأستاذ حمدى قنديل فى كتابه الذى حشد فيه الوثائق والدراسات عن مدى الخلل فى العمل العربى المشترك فى مجال الإعلام بقوله : «هذه الحقائق تكشف عن الشكوك المتبادلة بين أنظمة الحكم العربية، وتكشف أيضًا عن رغبة هذه الأنظمة فى الإبقاء على حالة الحصار الإعلامى الذى يفرضه كل

(١) كتاب «عربسات» للأستاذ حمدى قنديل، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٩.
(٢) المصدر نفسه .

نظام على شعبه، وانزعاج هذه الأنظمة من فكرة كسر هذا الحصار، وتمكين الشعوب من معرفة الكثير من الأحداث الداخلية والخارجية التى تحرص أنظمة الحكم على حجبها عن شعوبها!»[1].

القنوات الحكومية

بدأ البث الفضائى العربى بقنوات حكومية. وكانت القناة الفضائية المصرية هى أول قناة فضائية عربية تلتها قناة «MBC». ورغم أن هذه القناة «MBC» وقنوات أخرى تقدم نفسها كقنوات خاصة مستقلة، إلا أن تبعية هذه القنوات للسعودية أمر يعلمة الجميع. وإطلاق السعودية لهذه القنوات تحت مظلة أنها قنوات خاصة أملته ظروف موضوعية تتعلق بنظام الحكم السعودى.

الفضائية المصرية:

ظل القمر الصناعى العربى هائمًا فى الفضاء لأكثر من خمس سنوات دون أن يستخدم أحدٌ قنواته للبث التلفزيونى. وفى عام ١٩٩٠ تنبه الأستاذ صفوت الشريف وزير الإعلام المصرى إلى أن البث الفضائى قادم لا محالة، وأن الإسراع ببث قناة فضائية مصرية سيمكّن مصر من السّبق فى هذا المجال، وسوف يمنحها هذا السبق فرصة التفوّق فى الصراع الإعلامى العربى ـ العربى وهو الصراع الذى يمكن أن ينفجر فى أى لحظة.

وقرر وزير الإعلام المصرى أن يقتحم هذا المجال متعاقدًا مع المؤسسة العربية للاتصالات الفضائية المالكة للقمر الصناعى Arab Sat «عرب سات» لاستئجار قناة فضائية غزيرة الإشعاع لبث فضائية مصرية. وتعاقدت وزارة الإعلام المصرية فى الوقت نفسه مع قمر صناعى أوربى، لتتمكن مصر من بث فضائيتها لتغطية المنطقة العربية والدول الأوروبية التى يغطيها القمران آراب سات والقمر الأوربى. وبدأت الفضائية المصرية بثًا تجريبيًا لفترة قصيرة وأطلقت برامجها المنتظمة فى الثانى عشر من ديسمبر عام ١٩٩٠.

(١) كتاب «عرب سات» حمدى قنديل طبعة الهيئة المصرية للكتاب عام ١٩٨٩.

وتوافقت بدايات البث الفضائى التلفزيونى المصرى مع فترة من فترات المصالحة العربية التى توارت فيها بشكل ملحوظ الصراعات العلنية العربية العربية. وحرصت الفضائية المصرية على أن تبتعد تمامًا عن التعرض للموضوعات التى قد تثير الحساسية لأى نظام حكم عربى، فكانت نشرات الأخبار والبرامج السياسية تحرص على الابتعاد عن الموضوعات التى تعتبرها أنظمة الحكم العربية موضوعات شائكة. وكانت هذه القناة مجرد نسخة من القنوات التى تذاع على الموجات الأرضية، مع اختلاف بسيط يتمثل فى تقديم بعض البرامج التى تعنى باهتمامات الجاليات العربية فى المهجر.

وقد حدد اتحاد الإذاعة والتلفزيون الهدف من إطلاق هذه القناة والمناطق المستهدفة لالتقاط بث الفضائية المصرية والجماهير التى تهتم القناة بجذبها، وهى كما حددها الاتحاد :

١ - ربط المواطنين العرب بالإعلام والثقافة العربية التى تنبع من واقعهم وتعبّر عن وجدانهم وترعى قِيَمهم وأخلاقهم، والإسهام بربطهم فى فلك عربى يساعد على وحدة فكرهم والالتفاف حول القضايا المصيرية المشتركة.

٢ ـ ربط السفارات والمراكز الثقافية والإعلامية المصرية فى المنطقة العربية والإفريقية بالإعلام المصرى للتعرف على ما يتم تحقيقه من إنجازات ونهضة وتوجهات سياسية والمعايشة اليومية الكاملة للواقع المصرى.

٣ - ربط الجاليات المصرية فى المناطق المستهدفة بالإعلام المصرى وبوطنهم الأم، وإطلاعهم على مختلف أوجه التقدم والازدهار، وتزويدهم بأخبار بلدهم.

٤ - الاستفادة من إشعاع القناة القمرية لتغطية المناطق المحرومة من التغطية التلفزيونية داخل مصر.

٥ - التعريف بالنشاط السياحى والتجارى والاقتصادى المصرى والمبادرة باستغلال الفضاء فى نشر الرسالة الإعلامية المصرية على أوسع نطاق، لإثبات التواجد المصرى فى ظل التنافس الإعلامى الذى أتاحة استغلال

الأقمار الصناعية فى البث المباشر الذى تتسابق فيه جميع الدول الكبرى للسيادة وفرض سيطرتها الإعلامية خاصة على منطقتنا العربية[1].

ورغم أن هذه الأهداف ـ كما سجلها الاتحاد فى كتابة السنوى ـ صيغت بعبارات إنشائية فضفاضة، إلا أنها تكشف عن أن هاجس مصر هو استغلال انتشار البث الفضائى لتوسيع دائرة الدعاية لنظام الحكم وسياساته، وهى الدعاية التى كُرِّست لها كل أوقات البث بالقنوات التلفزيونية الأرضية. وقد نجحت الفضائية المصرية فى فترة إطلاقها الأولى فى جذب المشاهد العربى فى مختلف البلاد العربية وأيضًا فى جذب الجاليات العربية من مختلف البلاد العربية التى تعيش فى المهجر، خاصة فى أوربا وإفريقيا. غير أن انفراد الفضائية المصرية بالبث الفضائى وبالتالى بالوصول إلى المواطنين العرب فى جميع البلاد العربية وإلى الجاليات العربية فى أوربا وإفريقيا. هذا الانفراد لم يدم طويلًا عندما بدأت قناة الـ MBC السعودية. ثم قنوات الـ ART بشهما الفضائى الذى استهدف هو الآخر جذب هذه الجماهير.

ورغم هذه البداية الهادئة فقد كان إطلاق الفضائية المصرية بمثابة إشارة التنبيه للعديد من الأنظمة العربية. فقد أدركت هذه الأنظمة أن عصرًا جديدًا من الإعلام العابر للحدود قد بدأ، وأن هذا الإعلام الفضائى سيمثل – دون شك – سلاحًا بالغ القوة إذا نشبت حروب إعلامية من جديد بين بعض الأنظمة العربية، واحتمالات نشوب هذه الحروب يظل هاجسًا لا يبتعد كثيرًا عن دوائر الحكم فى الأنظمة العربية.

وبدأت المنافسة التقليدية المصرية السعودية فى عالم الفضائيات كما كانت فى عالم الصحافة والإذاعة من قبل. ورغم استقرار العلاقات الجيدة بين مصر والسعودية فإن المنافسة التقليدية بين البلدين تظل مستمرة خاصة فى مجال الإعلام. واستطاعت السعودية أن تحقق التفوق فى مجال البث الفضائى نتيجة

(١) هذه الأهداف منقولة نصًا من الكتاب السنوى الذى أصدره اتحاد الإذاعة والتلفزيون عن نشاطه عام ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣ ص١٠١.

لإطلاق السعودية عددًا هائلاً من القنوات الفضائية وتخصيص ميزانيات ضخمة للإنفاق على هذه الفضائيات واستقطاب عدد كبير من الكوادر الإعلامية المتميزة ، فى الوقت الذى عانى فيه الإعلام الرسمى المصرى تدهورًا ملحوظًا نتيجة لظروف كثيرة ليس هنا مجال الحديث عنها .

الفشل فى البث لأمريكا :

ساهم فى تفوق القنوات السعودية (ART, MBC وأوربت) أنها نجحت فى البث المنتظم فى الولايات المتحدة الأمريكية لتتمكن من جذب جماهير كبيرة من الجاليات العربية، ومن بينها بطبيعة الحال الجالية المصرية. وكان السبب أن الفضائية المصرية فشلت فى البث المنتظم بالولايات المتحدة الأمريكية. وكان هذا الفشل بسبب تصرفات مثيرة لشبهات فساد. فقد حدث أكثر من تعاقد لبث الفضائية المصرية، مع مؤسسات إعادة بث أمريكية، وقد شابت جميع هذه التعاقدات شبهات فساد بتدخل شخصيات ذات نفوذ فى وزارة الإعلام المصرية فى هذا الوقت. والمؤسف أن هذه التصرفات والتعاقدات المثيرة للشبهات قد تسببت فى تعرض اتحاد الإذاعة والتلفزيون المصرى لخسائر مادية بلغت ملايين الدولارات. ولم تزل بعض القضايا عالقة حتى الآن فضلًا عن الخسارة الأكبر وهى خروج الفضائية المصرية من المنافسة على الساحة الأمريكية[1].

القمر الصناعى المصرى نايل سات Nile Sat :

لم يتوقف طموح وزارة الإعلام المصرية عند حد إطلاق الفضائية العربية الأولى، بل بدأ وزير الإعلام صفوت الشريف فى اتخاذ خطوات تنفيذية لإطلاق قمر صناعى مصرى، رغم وجود العديد من القنوات غير المستغلة فى القمر الصناعى العربى «عرب سات» Arab Sat . وكان المنطق الذى برر به وزارة الإعلام المصرية إطلاق قمر صناعى خاص بمصر، هو ضرورة دخول مصر

(١) حرصت على ذكر أسباب هذا الفشل بشىء من التفصيل، رغم أن هذا التفصيل قد يبدو مجافيًا للسياق، لأن هذا الأسلوب من الفساد تكرر بأكثر من صورة لتمكين أبناء بعض كبار المسؤلين بوزارة الإعلام من الحصول على ملايين الجنيهات، وكثيرًا ما كانت هذه التصرفات سببًا فى تشويه وفشلها أكثر من قناة مصرية.

عصر الفضاء. غير أن هذا المنطق لم يؤيده الواقع العملى. فكل ما فعلته وزارة الإعلام المصرية هو التعاقد مع الفرنسيين لإطلاق قمر صناعى يحمل اسم مصر، لكنه تصميم وصناعة فرنسية خالصة. ولم تشترط مصر عند التعاقد إشراك خبرات فنية مصرية فى مراحل التصميم والتصنيع لاكتساب المعرفة والخبرات العلمية فى مجال صناعة الأقمار الصناعية.

ويبدو أن هاجس التنافس العربى كان وراء الإقدام على هذه الخطوة التى كانت دراسات الجدوى الاقتصادية لا تشجع على الإقدام عليها. فالقمر الصناعى العربى «عرب سات»، والذى تملكه المؤسسة العربية للاتصالات الفضائية. لم تزل به قنوات غير محمله بقنوات فضائية ومعنى هذا ان إطلاق قمر مصرى لن يجد من يستأجر قنواته.

ولكن يبدو أن وضع مصر فى المؤسسة العربية المالكة للقمر عرب سات لم يكن يسمح لمصر بالتأثير فى قرارات هذه المؤسسة، فهذه المؤسسة تشارك فيها جميع الدول العربية بنسب متفاوتة، وكانت نسبة امتلاك الدول العربية للأسهم فيها تضع المملكة العربية السعودية على قمة مالكى الأسهم بنسبة بلغت ٦٦،٣٦٪ ، بينما لم تتجاوز الأسهم التى تملكها مصر نسبة ضئيلة، وكان ترتيب مصر فى جدول ملكية الأسهم هو الثانى عشر[١] من بين الاثنتين والعشرين دولة عربية وهذا الوضع يسمح للسعودية بالسيطرة على إدارة هذه المؤسسة، باعتبارها صاحبة الأسهم المؤهلة لهذه السيطرة. كما أن المركز الرئيسى للإدارة ومحطة التحكم الرئيسية مقرها الرياض عاصمة السعودية[٢]. هذا الوضع للقمر الصناعى «عرب سات» يجعل وزارة الإعلام فى مصر ـ والتى ترى أنها الرائدة فى مجال الإعلام ـ تفكر جديًا فى إطلاق قمر صناعى مصرى، حتى تكون لها ـ أى مصر ـ السيطرة الكاملة على وسيلة بث فضائى يلبى احتياجاتها وحاجات الدول الراغبة فى استخدام قنواته، وتكون السيطرة الكاملة على هذا

(١) كتاب «عربسات» للأستاذ حمدى قنديل الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٩.

(٢) للقمر «عربسات» محطتان أرضيتان: المحطة الرئيسية فى الرياض، والثانية فى تونس. «المصدر السابق».

القمر مصرية خالصة. وكان للوزارة المصرية ما أرادت وأطلق القمر الصناعى المصرى الأول «نايل سات» Nile Sat[1].

المزيد من الفضائيات المصرية الحكومية:

بعد إطلاق القمر الصناعى المصرى ظهر عمليًا أن القنوات غزيرة الإشعاع التى يبثها القمر لا تجد من يستأجرها باستثناء عدد قليل من القنوات. ويعنى هذا أن القمر لن يحقق موارد مالية تكفى لنفقات تشغيله، فضلًا عن تحقيق أرباح، مما يعنى أن إطلاق هذا القمر لم يكن هدفه تحقيق أرباح مادية كما روّجَت لذلك وزارة الإعلام المصرية. وكان على هذه الوزارة أن تقلل بقدر الطاقة الخسائر التى سوف تتحملها الشركة المساهمة التى تملك القمر، والتى يساهم فيها اتحاد الإذاعة والتلفزيون وبعض البنوك المصرية ومواطنون مصريون أقبلوا على شراء أسهم هذه الشركة أملًا فى تحقيق أرباح معقولة.

وهنا عالجت وزارة الإعلام المصرية الموقف بتحميل جميع القنوات المصرية على قنوات فضائية بما فيها القنوات المحلية. كما تم استحداث العديد من القنوات المتخصصة التى أطلقت فضائيًا كقنوات الرياضة والدراما والمنوعات والثقافية والمرأة والأسرة وغيرها. وتم أيضًا تأجير عدد من قنوات القمر المصرى لوزارات التربية والتعليم والتعليم العالى والصحة لإطلاق البرامج التعليمية والبحث العلمى والصحة. وتجاوز عدد الفضائيات المصرية الثلاثين قناة فضائية سواء ما يبثه اتحاد الإذاعة والتلفزيون أو الوزارات المختلفة[2].

وبدأت موجة من إطلاق الفضائيات العربية الرسمية لكنها ظلت مجرد صور مكررة من الإعلام الرسمى العربى الذى تكبّله محاذير بغير حصر، خاصة فيما يتعلق ببث الأخبار المتعلقة بسياسات الأنظمة العربية سواء فى ذلك أخبار الأحداث داخلية فى هذه الدول أو أخبار لها علاقة بقضايا قومية عربية أو قضايا عالمية .

---

(١) تم إطلاق القمر الصناعى المصرى الأول نايل سات «١» Nile Sat 1 فى ابريل «نيسان» ١٩٩٨ وإطلق القمر الثانى Nile Sat 2 فى أغسطس «آب» عام ٢٠٠٠.

(٢) هذه قنوات خدمات تقدم بثها لفئات محددة من المشاهدين. ولن نتوقف عندها بالتقييم بالمعايير الإعلامية فأهدافها ليست أهدافًا إعلامية، لكنها خدمات تستخدم قنوات تلفزيونية. والتقييم الموضوعى لأداء هذه الخدمات يحتاج إلى دراسات يتولاها متخصصون فى الموضوعات التى تبثها هذه القنوات. وسوف أتعرض بتفصيل أكثر لهذه النوعية من القنوات فى الفصل الخاص بالقنوات المتخصصة.

القنوات السعودية (MBC) :

بدأت المملكة العربية السعودية فى الدخول بسرعة إلى ساحة البث الفضائى، غير أن نظام الحكم السعودى اختار أن يدخل هذه الساحة تحت مظلة قطاع خاص فانطلقت أول فضائية سعودية من لندن وهى الـ MBC، ويملكها بعض أمراء الأسرة السعودية بمشاركة الشيخ صالح كامل رجل الأعمال السعودى والمهتم منذ فترة طويلة بالنشاط الإعلامى.

وكان هذا الاتجاه السعودى متسقًا مع الظروف الموضوعية للمملكة العربية السعودية. فنظام الحكم السعودى يستمد شرعيته من الادعاء بأنه نظام يلتزم بتطبيق الشريعة الإسلامية، ويقوم علماء دين متشددون بتحديد أنماط السلوك والقِيَم التى يرونها معبّرة عن التدين الصحيح. وفى ظل هذه القيم تتسع دائرة تحريم الكثير من الفنون، وتلتزم المرأة بقواعد صارمة فى السلوك والحركة ونوعية الملابس. وتلتزم وسائل الإعلام السعودية الرسمية التزامًا دقيقًا بهذه المعايير. وهذا الالتزام أفقد الإعلام السعودى ـ خاصة الإعلام المرئى ـ الكثير من العناصر الجذابة والمبهرة التى تستهوى المشاهدين. ولهذا قررت السعودية إطلاق فضائياتها من خارج أرضها وتحت مظلة مِلْكَية خاصة لشخصيات سعودية، حتى تستطيع هذه الفضائيات أن تستخدم كل ألوان الجذب والإبهار الفنى الذى ترفضه وتؤثمة المؤسسة الدينية السعودية، وذلك حتى لا يتحمل نظام الحكم السعودى وزر هذا الأسلوب.

وهكذا انطلقت الفضائية السعودية الأولى الـ «MBC» لتقدم ألوانًا من فنون الإعلام الجذّابة بدعوى استقلالها عن النظام السعودى، وبالتالى تحررها من القيود الصارمة للمؤسسة الدينية فى السعودية.

وركزت الـ «MBC» على تقديم البرامج الجذابة خاصة البرامج الترفيهية، وبرامج المسابقات التى رصدت لها جوائز مالية مغرية تتجاوز فى بعض الحالات المليون ريال سعودى. وحظيت هذه النوعية من البرامج بكثافة مشاهدة

عالية. وأولت نفسها القناة إهتماماً واضحًا للبرامج التى تخاطب عرب المهجر فى أوربا والولايات المتحدة الأمريكية وغيرها. وفى خطابها بهذه البرامج كانت تحرص على أن تقدم نظام الحكم السعودى باعتباره النظام الذى يلتزم بتطبيق الشريعة الإسلامية والذى يدافع عن الإسلام والمسلمين. ولقى هذا الخطاب آذانًا صاغية من قطاعات كبيرة من الجاليات العربية والإسلامية فى المهجر، ففى ظروف الهجرة وشعور المهاجرين بأنهم «أقلية إسلامية» وسط محيط هائل من مواطنى بلاد المهجر المسيحيين، فى مثل هذه الظروف تنجذب الجماهير إلى الخطاب الدينى الذى يرون أنه يساندهم فى مواجهة أى اضطهاد أو تعصب تمارسة بعض فئات المجتمعات التى يعيشون فيها، والتى تعتنق أغلبها الديانة المسيحية.

أما نشرات الأخبار والبرامج السياسية التى تقدمها هذه القناة، فقد التزمت بالمعايير التى يلتزم بها الإعلام السعودى الرسمى إلى حد ما، وإن تمتعت بقدر ضئيل من الحرية النسبية المشروطة بالخطوط الحمراء الكثيرة التى تقيد الإعلام الرسمى السعودى. فلم تسمح ببث الأخبار التى ترى أنها تتعارض مع التوجهات السياسية الداخلية والخارجية للنظام السعودى. كما أنها تمنع بطبيعية الحال استضافة أى شخصيات يُعرف عنها معارضتها للسياسيات السعودية. وبهذا فإن هذه القناة لم تستطع أن تتعامل مع المادة الخبرية والسياسية بالمعايير المهنية وفقدت بهذا ثقة الجماهير فيما يتعلق بهذه المواد.

وقد أطلقت الـ «MBC» بعد ذلك العديد من القنوات، من أبرزها قناة «العربية»، وسوف نتناول بالتفصيل باقى قنوات الـ «MBC» فى الفصل الخاص بالقنوات المتخصصة.

شبكة قنوات أوربت :

مع بدايات البث الفضائى شعر المسئولون السعوديون بالقلق من هذا الوافد الجديد الذى يخترق الحدود ويصل مباشرة إلى الجماهير، وتصور بعض هؤلاء

المسئولين أن باستطاعتهم منع هذا التدفق للمواد الإعلامية، فطُرحت فكرة عدم السماح للجماهير بالالتقاط الحر للفضائيات بواسطة أطباق الاستقبال المنزلية. وفى هذا السياق شجعوا شخصيات سعودية بإنشاء شبكة قنوات تبث بنظام مشفر، حتى تتمكن السلطات من السيطرة على هذا البث. وتم بالفعل إنشاء شبكة قنوات «أوربت» التى تبث برامجها بنظام القنوات المشفرة والتى يتطلب استقبالها استخدام جهاز خاص لفك شفرة هذه القناة، ومن ثم يسهل السيطرة من المنبع على المادة المذاعة. وأدركت السلطات السعودية أن الاتجاه لمنع المواطنين السعوديين من الالتقاط الحر للفضائيات بواسطة أطباق الاستقبال المنزلى ليس حلًا عمليًا.

ورغم ذلك فقد إتسع نشاط شبكة قنوات «أوربت» فى مجال بث الأفلام والمواد الترفيهية الجذابة العربية والإنجليزية.

محاولة لكسب ثقة الجماهير:

وبقى العنصر المهم الذى يجذب الجماهير وهو تقديم الأخبار والبرامج السياسية بحرية حقيقية ، بقى هذا العنصر غائبًا عن قنوات «أوربت». وفى محاولة لتعزيز الخدمات المتعلقة بالأخبار خطط مسئولو الإعلام السعوديون لكسب ثقة المشاهد العربى بتقديم قناة إخبارية محترمة. ورأى هولاء المسئولون أن يستثمروا ثقة المواطن العربى فى هيئة الإذاعة البريطانية والتى حظيت تاريخيًا بثقة كبيرة لدى المواطنين العرب، الذين تابعوا لسنوات طويلة أخبار وتحليلات البرامج العربية التى تبثها هيئة الإذاعة البريطانية الـ BBC .

وتعاقدت شركة قنوات «أوربت» السعودية مع الـ «BBC» لتبث برامج إخبارية باللغة العربية على شبكة «أوربت»، تقدم الأخبار والبرامج السياسية. وتضمن العقد بندًا التزمت فيه الـ «BBC» باحترام الظروف الخاصة للمجتمع السعودى، وبندًا آخر يُلزم أوربت بعدم التعرض بالحذف أو الإضافة فى الموضوعات السياسية. وفى أحد البرامج تمت استضافة نشطاء حقوق الإنسان السعوديين

المقيمين بلندن والذين تعتبرهم السعودية منشقين معارضين لسياساتها. وقامت «أوربت» بحذف هذه الفقرة استنادًا إلى البند الذى ينص على احترام الظروف الخاصة بالمجتمع السعودى. ورفض مسئولو الـ «BBC». هذا التفسير، واعتبروا ما قامت به «أوربت» إخلالا بأحد أهم بنود العقد وهو الالتزام بعدم التعرض للمادة الخبرية والسياسية بالحذف أو الإضافة. ونشبت أزمة بين الطرفين انتهت بايقاف برامج الـ «BBC» العربية على شبكة «أوربت».

ويكشف هذا التصرف بكل وضوح مدى إيمان أصحاب الفضائيات السعودية بحرية الإعلام. فالحرية يسمح بها إذا تعرضت لأى بلد غير السعودية، ولا بأس من أن تتعرض بعض فضائياتها لقضايا شائكة فى العديد من البلاد العربية، لكنها لا بد وأن تتخلى تمامًا عن أى درجة من درجات الحرية إذا تعلّق الأمر بقضايا لها علاقة بممارسات الحكم بالمملكة العربية السعودية. وتزداد القيود عنفًا إذا تعلق الأمر بأشخاص الأسرة المالكة السعودية.

وفى محاولة لتعويض خسارة «أوربت» لمشاهدى الـ «BBC» العربية بعد توقف بثها على شبكتها قدمت «أوربت» برنامجًا جماهيريًا يتعرض للكثير من الأحداث الجارية فى مصر مستخدمًا نبرة عالية وحادة فى نقد الكثير من ممارسات السلطة فى مصر، وحظى هذا البرنامج بنسبة مشاهدة عالية شجعته على الوصول بنبرة النقد إلى أقصى درجة[1].

الدعاية للسعوديين:

وتؤدى قنوات «أوربت» خدمات جليلة للسعوديين بتجميل وجه نظام الحكم السعودى والأمراء والأثرياء السعوديين. فهذه البرامج قد أصبحت جهة يلجأ إليها المشاهدون طلبًا للمساعدة فى علاج مرضى حالاتهم حرجة، وتحتاج لنفقات ضخمة لا قِبَل لهم بها، أو للمساعدة فى حل مشكلة مادية تواجههم. وهنا تتلقى البرامج اتصالات هاتفية على الهواء من المسئولين السعوديين أو

(١) سوف أتعرض لهذا البرنامج وهو برنامج «القاهرة اليوم» والبرامج المتشابهة وهى كثيرة وتتنافس فى تقديمها قنوات عديدة فى صفحات خاصة بهذه البرامج ضمن الفصل المخصص بعلاقة أنظمة الحكم بالفضائيات.

بعض الأمراء أو الأثرياء يعرضون تحمّل النفقات المطلوبة فورًا وتبدأ هذه البرامج فى العزف على نغمة الكرم السعودى. وينطلق المذيع فى ترديد قصائد المديح فى الكرم السعودى وشهامة الأمراء السعوديين وأثرياء السعودية الذين يسارعون لعمل الخير ونجدة المحتاجين.

قنوات دولة الإمارات العربية المتحدة :

قناة الإمارات :

سارعت دولة الإمارات العربية المتحدة بالدخول فى ساحة البث الفضائى بإطلاق القناة التلفزيونية العامة الرسمية على قناة فضائية. وفى الوقت نفسه سارعت إمارات دبى والشارقة فأطلقت كل منهما قناتها الخاصة بها، ولحقت بهما بعد فترة إمارة عجمان. وتتعدد توجهات الفضائيات التى تطلقها كل إمارة.

فالقناة العامة التى تبث تحت شعار «الإمارات العربية المتحدة» تمثل وجهة النظر الرسمية لدولة الإمارات، وهى بشكل عام وجهة نظر تحرص على ألا تُدخِل الإمارات فى صراعات أو خصومة مع باقى الدول العربية. وهذا الحرص ينعكس بطبيعة الحال على أداء هذه القناة، فتخضع الأخبار والبرامج السياسية بها لقيود ثقيلة تهبط بسقف الحرية إلى أدنى درجة.

أما القنوات التى أطلقتها الإمارات الثلاث: الشارقة ودبى وعجمان، فتعكس توجهات أمراء هذه الإمارات وهى توجهات سياسية بل واجتماعية واقتصادية مختلفة إلى درجة التناقض فى بعض الحالات مع بعضها البعض .

قناة الشارقة :

تتبنى قناة الشارقة سياسة عربية قومية وتهتم اهمامًا ملحوظًا بالقضايا القومية العربية مع الحرص بطبيعة الحال على الحفاظ بدرجة معقولة على عدم التصادم مع الخط السياسى العام للدولة والذى يسير فى نفس الاتجاه القومى، لكنها تحرص على عدم التورط فى الصراعات العربية ـ العربية. ورغم هذا الحرص فإن القناة لا تتردد فى اتخاذ موقفٍ واضح وحاسم عندما يتعلق

الأمر بقضية قومية عربية مصيرية، حتى وإن اختلفت الى حدّ ما مع المواقف الرسمية لدولة الاتحاد.

قناة دبى:

تتحرك قناة دبى بقدر أكبر من الحرية، ويعنيها فى المقام الأول الترويج للسياسات الاقتصادية للإمارة، والتى تسعى إلى أن تكون مركزًا مهمًّا لتجارة دولية حرة ترث الدور الاقتصادى الذى كانت تمارسه هونج كونج كأحد أهم مراكز التجارة الحرة عالميًا، بعد أن عادت هونج كونج إلى السيادة الصينية. وأطلقت دبى أكثر من قناة فضائية متخصصة كقناة الدراما وقناة الرياضة.

أما القناة العامة فقد منحت بعض برامجها قدرًا من الحرية فى محاولة لجذب المشاهدين، بل إنها فى بعض الحالات سمحت بأن يرتفع سقف الحرية لدرجة كبيرة كما هو حادث بالنسبة إلى برنامج الأستاذ حمدى قنديل «قلم رصاص»[1]، وإن كانت قد اضطرت إلى وقف البرنامج مؤخرًا.

قناة أبوظبى:

تولى أحد أبناء الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان منصب وزير الإعلام، وهو شاب مملوء بالحماس وتوجهاته السياسية تنحاز بقوة إلى الاتجاهات القومية التى تناهض السياسات الأمريكية والصهيونية. وقرر الوزير الشاب أن يطلق فضائية تتجاوز الفضائية الرسمية لدولة الإمارات المتحفّظة. وكانت «قناة الجزيرة» ماثلة فى ذهنه بجاذبيتها التى اعتمدت على سقف عالٍ من الحرية، فأطلق الرجل قناة «أبوظبى» وبدأت القناة بداية مبشرة وواعدة، فسقف الحرية فيها مرتفع وشبكة مراسليها تغطى مناطق كثيرة فى جميع أنحاء العالم. وكانت الانتفاضة الفلسطينية تدفع بالصراع العربى الإسرائيلى إلى بؤرة اهتمام المواطنين فى جميع البلاد العربية. وهنا نزلت قناة «أبوظبى» إلى الميدان، لتكون أحد الأسلحة التى تشد من أزر الانتفاضة الفلسطينية وتهاجم بعنف الانحياز

(١) قامت قناة دبى بإيقاف بث برنامج «قلم رصاص» تحت ضغوط دول عربية وأجنبية فى شهر ديسمبر عام ٢٠٠٨.

الأمريكى لإسرائيل. ونافست القنوات العربية الأخرى بقوة فى نقل وقائع الانتفاضة الفلسطينية من ميدان الصراع ببث مباشر واستحوذت يومها على اهتمام وثقة الجماهير العربية. ونجحت القناة فى أن تجد لنفسها موقعًا جيدًا على خريطة الإعلام العربى الذى ينال ثقة وإعجاب الجماهير العربية. ومارست الولايات المتحدة ضغوطا هائلة على دولة الإمارات للجم هذه القناة. ولم تستطع دولة الإمارات أن تصمد طويلًا أمام الضغوط الأمريكية، فتم وضع القيود على هذه القناة وهبط سقف الحرية بدرجة كبيرة. ولفت هذا التغيير انتباه المشاهدين العرب فانصرف عنها كثيرون من مشاهديها، خاصة أولئك الذين جذبهم توجهها القومى وكشفها للانحياز الأمريكى الإسرائيلى[1].

فضائيات قطر:

أطلقت دولة قطر قناتها الأولى الرسمية على موجة فضائية وكانت هذه الفضائية صورة طبق الأصل من الفضائيات العربية الرسمية. وعند تولى الشيخ حمد بن خليفة مقاليد الحكم بعد الإطاحة بوالده بادر بإصدار قرارات لإلغاء الكثير من القيود الثقيلة التى كانت تكبل الإعلام القطرى. غير أن هذه القرارات ظهر أثرها بوضوح على الصحف المطبوعة، لكن أثرها ظل محدودًا على الإذاعة والتلفزيون.

وكان واضحًا أن مهندس السياسة القطرية الجديدة، الشيخ حمد بن جاسم بن جبر آل ثانى وزير الخارجية فى العهد الجديد، يرى أن أى تطوير للبث التلفزيونى لن يحقق طموحاته فى امتلاك قوة إعلامية مؤثرة.

ورأى الشيخ حمد بن جاسم أن يسير على نهج السعوديين بإطلاق فضائية مملوكة لمؤسسة خاصة لتتحرك بحرية متحاشية القيود التى يفرضها انتسابها رسميًا إلى الدولة القطرية. ولم يمض وقت طويل حتى كان الشيخ حمد بن

(١) قد يتساءل القارئ هنا، لماذا نجحت ضغوط الولايات المتحدة على دولة الإمارات فغيرت قناة أبوظبى من توجهاتها وسياساتها، بينما لم تنجح ضغوط أمريكية مماثلة فى إقناع المسئولين فى دولة قطر بإلزام قناة الجزيرة بتغيير أسلوبها الذى لا تستريح له الولايات المتحدة الإمريكية؟ وهذا سؤال مشروع ومنطقى.. وسوف أتعرض للموضوع فى الصفحات التى أتحدث فيها عن قناة الجزيرة بالتفصيل.

جاسم يبدأ فى تحقيق هذا الطموح بإطلاق قناة «الجزيرة» كقناة متخصصة فى الأخبار والبرامج السياسية ومستقلة شكلًا.

القنوات الكويتية:

تبث الكويت عددًا من القنوات الرسمية، إحداها القناة العامة، وبعضها قنوات متخصصة «رياضية»، وبعضها ناطق بالإنجليزية. كما تبث قنوات خاصة[1] كويتية مثل «المجالس»، ومثل باقى القنوات العربية الحكومية تلتزم هذه القنوات بالدفاع عن مواقف وسياسات الأمير والحكومة التى غالبًا ما يرأسها أحد أفراد الأسرة الحاكمة.

غير أن القنوات الكويتية بشكل عام تتمتع بهامش من الحرية نتيجة للظروف السياسية الكويتية التى تعيش منذ فترة طويلة فى ظل تعددية حزبية تسمح بتعدد الأصوات وبقدر معقول من حرية التعبير.

وهذا المناخ السياسى ينعكس بطبيعة الحال على النشاط الإعلامى، ولهذا نلاحظ أن الفضائيات الكويتية الحكومية والخاصة معًا لا يخضعان للقيود الصارمة التى تخضع لها الفضائيات الحكومية فى مختلف البلاد العربية.

ولا شك أن مناخ حرية الصحافة الذى ساد لسنوات طويلة فى الكويت قد ساهم فى ترسيخ قيمة حرية الإعلام بشكل عام. وفى مثل هذا المناخ يصعب على نظام الحكم أن يستثنى وسيلة إعلامية من الحرية التى تتمتع بها الصحافة المطبوعة.

وأعتقد أن التوازن الاجتماعى والاقتصادى بين قطاعات المجتمع الكويتى المختلفة كان سببا مهمًا فى عدم قدرة طائفة أو جماعة واحدة من احتكار حرية الإعلام.

ومهما كانت الأسباب التى أدت إلى تمتع الإعلام الكويتى بحرية نسبية فإن النتيجة واحدة، وهى تمتع الفضائيات الكويتية بدرجة معقولة من الحرية شأن باقى وسائل الإعلام فى دولة الكويت.

(١) تتم مناقشة وضع هذه القنوات فى الفصل الخاص بالقنوات الخاصة.

القنوات السودانية :

بنفس المنطق الذى سمح بهامش حرية للقنوات الكويتية وقنوات بعض الدول العربية، نلاحظ أن الفضائيات السودانية تتعدد توجهاتها بتعدد توجهات الأحزاب والقوى السياسية. وتتمتع هذه القنوات بحرية نسبية، وبعضها يتجاوز معارضتها للحكومة المركزية كل الخطوط الحمراء، خاصة فضائية جنوب السودان.

الفضائيات الليبية:

ظلت ليبيا حتى نهايات عام ٢٠٠٧ تعتمد على إطلاق قناتها التلفزيونية الرسمية وتطلقها على موجات فضائية. وفى نهايات عام ٢٠٠٧ أطلقت ليبيا ثمانى فضائيات، وبعض هذه الفضائيات قنوات متخصصة فى المنوعات أو الرياضة وغيرها.

وتفتقد القناة الرسمية الحد الأدنى من الالتزام بالمعايير المهنية الإعلامية. وترتفع فى هذه القناة الرسمية نغمة الدعاية المباشرة والصارخة لنظريات العقيد القذافى وآرائه ، وتقدم فقرات من كتابه الأخضر بين فقرات البرامج طوال فترات البث. وهذه القنوات لا تلفت انتباه المشاهد العربى، وغاية ما تستطيع تحقيقه هو متابعة بعض جماهير الشعب الليبى لبرامجها الترفيهية أو الخدمية.

قناة الساعة :

حاولت بعض أجنحة السلطة فى ليبيا أن تسير على نهج السعودية وقطر بإطلاق قنوات خاصة تملكها شخصيات ترتبط بنظام الحكم الليبى برباط وثيق، مما يضمن هيمنة النظام الليبى بالكامل على توجهات هذه القنوات.

ويبدو أن أصحاب هذا الاتجاه نجحوا فى إقناع القيادة السياسية العليا «العقيد القذافى» بهذا الاتجاه. وتنفيذًا لهذا التوجّه قام أحد الصحفيين

اللبنانيين[1] بإطلاق قناة «الساعة» من القاهرة. وبدأت القناة بتقديم عدد من البرامج التى تنافس البرامج الجماهيرية والسياسية فى القنوات الأخرى. ولم تتردد القناة فى نقد الكثير من الممارسات لبعض الحكومات العربية خاصة الحكومة المصرية، كما قدمت العديد من البرامج التى تهاجم إسرائيل وأمريكيا بنبرة عالية وحادة. واستطاعت القناة فى فترة معقولة أن تجذب بهذا الاتجاه نسبة لا بأس بها من المشاهدين. وبطبيعة الحال فإن أى شبهة نقد للسياسات الليبية عامة أو للعقيد القذافى خاصة لم يكن مسموحًا بمجرد الاقتراب منها.

ولكن يبدو أن العقيد القذافى تلقى عتابًا أو إحتجاجًا من القيادة المصرية، ومن عدد من أنظمة الحكم التى نالها بعض النقد فى برامج هذه القناة دفعته إلى اتخاذ قرار باستبعاد الصحفى اللبنانى ونقل ملكية القناة إلى أحد المسئولين الليبيين. وبهذا فرضت القيادة الليبية سيطرتها المباشر على هذه القناة لتصبح قناة «الساعة» إحدى القنوات الحكومية الليبية. وبهذه الصفة الجديدة تخلت القناة تمامًا عن الخوض فى الموضوعات التى جذبت لها كثافة جماهيرية، وهى نشرات الأخبار والبرامج السياسية والبرامج الجماهيرية التى كانت تتمتع بدرجة معقولة من الحرية. كما اختفت برامج نقد السياسات المصرية خاصة ما تعلق منها بالموضوعات الجوهرية. وبدأت القناة ـ شأنها شأن باقى القنوات الليبية ـ تبث مقتطفات من «الكتاب الأخضر» للقذافى بين فقرات برامجها. وكان طبيعيًّا أن تفقد القناة فى وضعها الجديد نسبة كبيرة من المشاهدين.

قناة الليبية:

يبدو أن تجربة قناة «الساعة» وإحرازها بعض النجاح النسبى فى بداياتها قد أغرت أجنحة أخرى بالقيادة الليبية لتحاول إطلاق قناة أكثر جرأة وتتمتع بسقف أعلى من الحرية، ورأى أصحاب هذا الاتجاه أن الظرف مناسب لكسب

(١) الصحفى اللبنانى الذى أطلق هذه القناة هو الأستاذ وليد الحسينى، وهو من الصحفيين اللبنانيين الذين يرتبطون بصلة وثيقة بالنظام الليبى فى فترة استخدام الصحف اللبنانية فى الحرب العربية العربية. وأصدر فى تلك الأيام مجلة الكفاح العربى المعبرة عن التوجهات السياسية الليبية.

ثقة جماهير عريضة من المشاهدين فى مختلف البلاد العربية بإعلانهم قبول الإذاعى القدير الأستاذ حمدى قنديل تقديم برنامجه «قلم رصاص» على قناتهم التى أطلقوا عليها اسم «الليبية»، هذا البرنامج الذى كان يجذب كثافة هائلة من المشاهدين من جميع البلاد العربية. وقرر هذا الفريق إطلاق قناة «الليبية» من خلال شركة الغد التى تملكها رابطة الفنانين الليبيين التى تضم النقابات الاتحادات الفنية والثقافية[١].

وقام مسئولو القناة بتنظيم حملة إعلانية كبيرة، تؤكد أن مسئولى القناة وافقوا على أن يتمتع الأستاذ حمدى قنديل بالحرية الكاملة التى يرفض التنازل عنها. وكان لهذه الإعلانات أثرها فى إقبال عدد كبير من المشاهدين فى جميع البلاد العربية على البحث عن هذه القناة ليتابعوا مذيعهم الذى منحوه ثقتهم الكاملة[٢].

وبدأت قناة «الليبية» بالفعل ببث برنامج «قلم رصاص»[٣]. من العاصمة البريطانية لندن، وكعادته أطل حمدى قنديل على مشاهديه ليخاطبهم بالحرية التى رفض دائمًا أن يتنازل عنها أو أن يسمح بالانتقاص منها. وبعد أن عرضت القناة الحلقة الثانية صدر قرار القيادة الليبية بتأميم شركة الغد المالكة للقناة وتم ضم القناة إلى مجموعة القنوات الرسمية الليبية[٤]. وبالطبع تم وقف برنامج «قلم رصاص». وكان واضحًا أن ضغوطًا قوية مورست على القيادة الليبية لوقف برنامج «قلم رصاص» فرأت تجنبًا للحرج أن تستولى على القناة[٥].

---

(١) المعروف أن هذه الاتحادات والروابط تتمتع بدعم قوى من نجل العقيد القذافى «سيف الإسلام القذافى» وأنها لا تتحرك خاصة فى مثل هذه الأمور الحساسة إلا بعد أن تحصل على الضوء الأخضر من سيف الإسلام القذافى.

(٢) برامج حمدى قنديل بدأها ببرنامج «مع حمدى قنديل» على قناة ART، ثم تركها ليقدم برنامجه تحت مسمى «رئيس التحرير» على شاشات التليفزيون المصرى، ثم تركه ليقدم البرنامج بنفس الإسم على شاشات «دريم» ثم ترك قناة «دريم» وعاد ليقدم برنامجة على شاشات قناة «دبى» تحت مسمى «قلم رصاص»، وبنفس الاسم قدم حلقتين من البرنامج على قناة «الليبية» ثم توقف.

(٣) بدأ بث الحلقة الأولى من برنامج «قلم رصاص» فى الأسبوع الأخير من مارس عام ٢٠٠٩.

(٤) صدر قرار السلطات الليبية بتأميم شركة الغد وإلحاق قناة الليبية بمجموعة القنوات الرسمية الليبية فى أبريل عام ٢٠٠٩.

(٥) فى ديسمبر ٢٠٠٩ صدر قرار السلطات الليبية بإعادة شركة الغد إلى مالكيها ويلاحظ أن هذا القرار صدر فى أجواء عودة سيف الإسلام القذافى إلى الأضواء باعتباره الرجل القوى فى ليبيا قبل شهور من صدور هذا القرار.

وأود هنا أن أشير إلى أننى تناولت قناتَى «الساعة» و «الليبية» فى إطار القنوات الحكومية الليبية رغم أن البدايات كانت تنسبهما إلى القنوات الخاصة، لأن هذه البدايات تم إجهاضها وأصبحا بالفعل ضمن منظومة القنوات الحكومية الليبية.

القنوات السورية:

تطلق سوريا عددًا من القنوات الفضائية، بعضها قنوات رسمية وأخرى تطلقها مؤسسات خاصة. وبعض هذه القنوات عامة وبعضها قنوات متخصصة. والقنوات الرسمية والخاصة معًا لا تختلف فى أسلوبها عن القنوات الرسمية العربية التى تكرس برامجها للدعاية لنظام الحكم. ويبدو أن المؤسسة الرسمية السورية تخطط لإطلاق عدد كبير من الفضائيات دفعة واحدة فى عام ٢٠١٠ تحت مسمى قنوات «أمية» وهى قنوات متخصصة فى الأفلام العربية والأجنبية والأغانى والرياضة وقناة وثائقية وأخرى للأخبار.

الفضائيات العراقية:

قبل الغزو الأمريكى للعراق كان الحصار الخانق الذى فرضته أمريكا وحلفاؤها على العراق قاسيًا، ولم يستطع صدام حسين أن يطلق فضائيات عراقية لتدافع عن سياساته. وكانت الساحة الفضائية خالية من صوت قوى يرد هجمات عديدة أجنبية وعربية تتدفق على العراقيين.

وبعد الغزو الأمريكى للعراق مرت فترة يعتمد فيها العراقيون على استقبال البث الفضائى القادم إليهم من العديد من البلاد العربية والأجنبية.

وفى محاولة لملء هذا الفراغ الإعلامى أطلقت أمريكا قناة «الحرة» للدفاع عن غزوها للعراق وعن الممارسات غير القانونية وغير الإنسانية التى ترتكبها قوات الغزو.

وسرعان ما بدأت بعض القوى السياسية الشيعية فى التنبه إلى أهمية إطلاق قنوات فضائية بغرض الدعاية لمشاريعها السياسية. ولم تلبث بعض القوى السياسية السنية أن أطلقت هى الأخرى فضائيات تنطق باسمها.

ولم يكن الاتجاه لإطلاق الفضائيات بقصد مخاطبة الجماهير العربية فى جميع البلاد العربية، بل أملت هذا الاتجاه ظروف موضوعية. فالبث على قنوات أرضيه يتطلب إقامة الشبكة مبالغ باهظة إذا أريد لها أن تعطى الأراضى العراقية بالكامل. كما أن إقامة هذه الشبكة من محطات التقوية تواجه الرفض من المواطنين المنتمين إلى مذاهب أو قوى سياسية مختلفة مع الحكومة العراقية. وكان الوضع السياسى ـ ولم يزل ـ وضعًا يعانى من تضارب واضح بين تيارات سياسية مختلفة داخل مؤسسات الحكم التى تضم تيارات تختلف فيما بينها اختلافًا حادًا.

وفرضت هذه الظروف الموضوعية العدول عن استخدام البث على قنوات أرضية. سواء القنوات الخاصة التابعة لمختلف القوى السياسية أو القناة الرسمية.

وأطلقت الحكومة العراقية قناة رسمية عانت منذ اللحظة الأولى من الصراع الداخلى بين القوى السياسية المختلفة التى تتشكل منها مؤسسات الحكم.

وكانت النتيجة الطبيعية هى انصراف الجماهير عن متابعة هذه القناة الرسمية. وامتلأ الفضاء بعشرات القنوات الفضائية التى تمثل مختلف القوى السياسية.

ويغلب على هذه القنوات الطابع المذهبى «الشيعى أو السنى»، أما القضايا السياسية والاجتماعية فدائمًا ما يتم تقديمها على خلفيات دينية مذهبية. أو خلفيات عراقية «أكراد وترك وعرب».

وحاولت قناة «الحرة» الأمريكية أن تلعب دور المشاركة فى الشأن الإعلامى العراقى فأطلقت على إحدى قناتيها «الحرة العراقية» على أن ما تقدمة هذه القناة يمثل صوت الشعب العراقى، بل تعاملت مع هذه القناة يمثل بصفتها الحقيقية أى اعتبارها قناة تمثل الغزاة الأمريكيين.

القنوات العربية الرسمية الأخرى :

أطلقت جميع البلاد العربية قنوات فضائية. لكن هذه القنوات كانت نسخة طبق الأصل من القنوات الأرضية بهذه الدول. ونستطيع أن نرصد عدداً من الملاحظات التى تمثل ملامح مشتركة لهذه القنوات :

أولاً: تُكَرّس هذه القنوات كل كلمة فيها للدعاية لنظام الحكم فى هذا البلد أو ذاك. وبدقة أكبر فإن مهمة هذه القنوات الرسمية الأرضية منها والفضائية تنحصر فى الدعاية المباشرة والساذجة فى كثير من الأحيان لشخص الحاكم وحاشيته المقربة، وتقديمه للجماهير باعتباره الحاكم العادل الذى يقود بلاده بالحكمة، والعبقرى الذى يستلهم العالم كله الأفكار والآراء الصائبة منه .

ثانياً : تتجاهل هذه القنوات أبسط القواعد والمعايير المهنية سواء فى الحياد أو فى الموضوعية أو التدفق الحر للأخبار أو العرض المتوازن لوجهات النظر المختلفة.

ثالثاً : تمنع هذه القنوات الشخصيات المعارضة لنظام الحكم من الظهور على شاشاتها، ليس فقط فى البرامج السياسية بل يمتد هذا المنع عادة إلى جميع البرامج الثقافية وحتى الترفيهية. كما تتجاهل هذه القنوات نشاط هذه الشخصيات وأخبارهم، وبطبيعة الحال تتجاهل نشاط قوى المعارضة السياسية.

ولهذا انصرفت الجماهير عن متابعة هذه القنوات خاصة المواد الخبرية والسياسية، واقتصر إقبال الجماهير على ما تبثه هذه القنوات من برامج ترفيهية، سواء كانت أفلاماً أو مسلسلات أو مباريات رياضية أو كليبات غنائية مثيرة، أو مسابقات تغرى المشاهدين بمكاسب مادية سهلة وسريعة.

ولم أر فيما تقدم الفضائيات الرسمية لهذه الدول العربية تغييراً عما تقدمه قنواتها الأرضية يستحق أن نتوقف عنده، رغم أن بعض هذه الدول تقدم أكثر من قناة.